**المحاضرة الخامسة: الاستشراق والشعر الجاهلي**

**أولا: مسألة انكار الشعر الجاهلي**

في عام 1926 أصدر "طه حسين" كتابه "في الشعر الجاهلي"، والذي أحدث دويا عظيما نظرًا لحساسية الموضوعات التي تطرق لها، وفي مقدمتها مسألة انتحال الشعر الجاهلي. وتعود هذه القضية إلى المقدمة التي كتبها "محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحي" لكتابه: «طبقات فحول الشعراء» وتحدث فيها عن النَّحْل في الشعر الجاهلي.

في العصر الحديث أعاد المستشرقون طرح القضية مرة أخرى، ففي عام 1925 نشر المستشرق البريطاني "ديفيد صمويل مرجليوث" في مجلة "الجمعية الملكية الآسيوية" دراسة بعنوان «The origins of Arabic poetry»؛ متوصلا إلى أن هذا الشعر المنسوب إلى العصر الجاهلي، لا يعبر أبدا عن طبيعة هذا العصر. بعد أشهر قلائل من هذا البحث نشر "طه حسين" كتابه «في الشعر الجاهلي» متطرقا إلى نفس القضية، بنفس الأدلة والشكوك متبعا نظرية "رينيه ديكارت" في الشك وسيلة لليقين.

وكان باعثه في هذا الإنكار للشعر الجاهلي عدة أسباب، في مقدمتها: عدم وجود اختلاف جوهري في اللهجات بين الأشعار المنسوبة للجاهلية، على الرغم من انتماء أصحابها إلى قبائل شتى، ويستند "طه حسين" في هذا الرأي بما روي عن "أبى عمر ابن العلاء" أنه كان يقول (ما لسان حمير (العاربة) بلساننا ولا لغتهم بلغتنا)، فضلا عن أن هذه الأشعار تخلو من أي تصوير للحياة الدينية الوثنية قبل الإسلام ،والسجال الكبير مع الدعوة الإسلامية ، والتي يصورها القرآن ،ولا أثر لها في الشعر الجاهلي، وكذلك خلوها من الإشارات إلى الحياة الفكرية والثقافية، بحكم انفتاح العرب في هذا الوقت على الفرس والروم.

كان باستطاعة الدراسة التي قدمها "طه حسين" أن تمر مرور الكرام، فهي تتضمن أسبابا وجيهة تدخل في سياق البحث العلمي، لولا ما تضمنه بحثه من إشارات مفتعلة لم تكن في سياقها الطبيعي، ومنها التشكيك في الوجود التاريخي للنبيين "إبراهيم "و"إسماعيل" عليهما السلام بقوله: (للتوارة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخى). كما ينظر بمنظور الشك؛ لكون الدين الإسلامي له أولوية في بلاد العرب، وأنه دين الأنبياء من قبل. كما يتطرق إلى نسب النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه قد تمت إحاطته بهالة من التضخيم والمبالغة فيقول: «ونوع آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين، هو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته، ونسبه إلى قريش» كما أشار إلى أن القراءات السبع للقرآن ليست إلهية، وأنها اقتضاها اختلاف لغات القبائل يقول: (والحق أنه ليست هذه القراءات السبع من الوحي في قليل ولا كثير).

بصدور الكتاب تقدم الشيخ "خليل حسنين" الطالب بالقسم العالي بالأزهر ببلاغ إلى النائب العام ضد "طه حسين"، ثم أعقبه بلاغ آخر من شيخ الأزهر "محمد أبو الفضل الجيزاوى" واصفا الكتاب بأنه دعامة من دعائم الكفر ومعولاً لهدم الأديان.

بدأ "محمد نور" رئيس نيابة مصر التحقيق مع "طه حسين" في 19 أكتوبر سنة 1926. ومما يبدو من مطالعة محاضر التحقيق أن "طه حسين" كان متأففا وضجرا من الأسئلة وكانت إجاباته باهتة وعاجزة مثل: هذا فرض وليس من السهل إثباته، وما أظن ذلك!! وانتهت التحقيقات بقرار النيابة بحفظ الأوراق إداريا لانتفاء القصد الجنائي.

على المستوى السياسي والحزبي كان "سعد زغلول باشا" رئيسا للبرلمان والذي شهد موجة عارمة من احتجاجات النواب ضد الكتاب، لكن "عدلي يكن" رئيس الحكومة ورئيس حزب الأحرار الدستوريين المنتمي له "طه حسين" رفض المساس به، فيما عبر "سعد "عن رفضه للكتاب بقوله: (هبوا أن رجلا يهذي في الطريق فماذا علينا إذا لم تفهم البقر؟)

أما الصحافة فقد انبرى عدد من المفكرين في الشدّ من أزر "طه حسين" في طليعتهم "محمد حسين هيكل" و"أحمد لطفي السيد" وغيرهما، وفى المقابل كانت هجمة قوية ضد الكتاب وفي مقدمتهم الدكتور "زكي مبارك" والحاصل على الدكتوراه في الآداب من الجامعة المصرية ثم مرة أخرى من جامعة "السوربون" بباريس وكان تلميذا ل"طه حسين" ثم زميلا لهن فقد لخص في كلمات معدودات رأيه عن "طه حسين" هو يغني عن آراء باقي المعارضين لشموليته فيقول (إنه من العجيب في مصر بلد الأعاجيب أن يكون طه حسين أستاذ الأدب العربي في الجامعة المصرية وهو لم يقرأ غير فصول من كتاب الأغاني وفصول من سيرة ابن هشام. وقد مرّت عليه أعوام لم يقرأ فيها كتابًا كاملاً!!!!). كما يقول أيضا (أنا لا أعرفه إلا رجلا ينهب آراء المستشرقين ثم يدعيها لنفسه).

في يناير1955م قام طه حسين بأداء العمرة وقد تسلم الحجر، وقبله في خشوع وبكاء خفي. وأتم عمرته، وحينما أراد الذهاب إلى المدينة، كانت السيول حائلا دون استخدامه السيارة، وكان معروفا عن "طه حسين" خوفه الشديد من ركوب الطائرات، لكنه تخلى عن هذا الخوف أمام شغفه الجارف لمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكأننا في هذه الرحلة الحجازية لعميد الأدب العربي نجد اعتذرا صامتا وعمليا عما ورد في كتابه، من نيل من المقدسات الدينية.

**ثانيا: المستشرقون يلتمسون مرآة الحياة الجاهلية في الشعر الجاهلي**

فإذا صدقت هذه النظرية بالنسبة لشعر الأمم القديمة والحديثة في الشرق والغرب، فلماذا لا تصدق في عرب الجاهلية؟ لا سيما أنَّ العرب في الجاهلية قد خاضوا عباب بحور الشعر، وولجوا كل باب من أبوابه، فوصفوا وترسلوا وتفننوا وتغزلوا ورثوا ودونوا الأخبار ومدحوا وهجوا، وضربوا الأمثال، ووضعوا الحكم، وتنافروا وتفاخروا، وشاعرهم مندفع في كل ذلك بسائقة الطبيعة، يفكر في محسوس بين يديه، ومنظور أمام عينيه، وعاطفة بين جنبيه، وشعيرة تختلج في صدره، وصورة مرسومة في مخيلته منعكسة عن طريق معيشته وفطرته، لا يتطلع إلى ما وراءها، ولا يتكلف الزخرف والتنميق.

وكان الشعراء الجاهليون يسددون قولهم نحو كبد الحقيقة فلا يخطئونها، ويقولون الشعر عن شعور حي، ولا يتخطون إلى ما وراء مشهودهم ومعقولهم، فجاء شعرهم مثالًا صادقًا لبداوتهم وحضارتهم، حتى لو اندثرت جميع أخبارهم وآثارهم، وما بقي إلا شيء من شعرهم لتيسر للباحث أن يستخرج منه وصفًا كاملًا لجميع أحوالهم، كما استخرج الباحثون كثيرًا من غوامض جاهلية اليونان من شعر "هوميروس"، ويسري هذا الحكم على جميع شعراء الجاهلية من عبدة الأوثان والصابئة والمجوس واليهود والنصارى، ومن أدرك الإسلام وأسلم أو لم يسلم، فالشاعر العربي ينزع دائمًا إلى رسم الحقيقة رسمًا ناطقًا. قال الأستاذ "موريس كروازيه" في مقدمة كتابه "في تاريخ الأدب اليوناني": «إنَّ جملةً لخطيبٍ أو بيتَ شعر لشاعر أشبه بمرآة تنعكس فيها صورة تدل على ماضي اللغة والتاريخ لشعب من الشعوب، وتدل على المتفنن الذي صاغ شكلها ووهب لها جمالها، كل هذا يرى في الشعر والنثر، ومؤرخ الأدب كمؤرخ العلم الطبيعي، فهو قبل كل شيء ذو ملاحظة خالية «. من الأهواء والأغراض

وقال "تين" في مقدمة كتابه «تاريخ فنون الأدب عند الإنجليز»: «إنَّ الآداب صورة كاملة صحيحة من الأشخاص والزمن الذي يعيشون فيه.»، قال نيكلسون أستاذ آداب اللغة العربية في جامعة أكسفورد ومؤلف تاريخ آداب اللغة العربية في صفحة ١١ من مقدمة الكتاب المشار إليه طبع ١٩١٤: «بالنظر إلى خطورة شأن الشعر العربي لكونه في جوهره ولبه المقصود مرآة صادقة لحياة العرب، فلا أحسبني مسرفًا في سعة المكان الذي أفسحته له في هذا الكتاب.»

واللافت للنظرفي هذا الدليل الذي استدللنا به أنَّ المؤلف الإنجليزي الذي أرَّخ الآداب العربية عبَّر بمرآة الحياة العربية، وهو عين التعبير الذي استعمله مؤلف الشعر الجاهلي ليدلل على عكس هذه النظرية،

وقال "نيكلسون" نفسه في ص٢٦: «إنَّ مزايا العصر الجاهلي وخواصه مرسومة صورها — كما تُعكس صور الأشياء في المرآة — بأمانة ووضوح في الأغاني والأناشيد التي نظمها الشعراء الجاهليون.» وقال في صفحة ٢٧: "إنَّ الأدب الجاهلي المنظوم منه والمنثور يُمكِّننا من تصوير حياة تلك الأيام الجافية — الجاهلية — تصويرًا أقرب ما يكون من الدِّقة في مظاهره الكُبرى".

وقال" ثوربيكه" الألماني في كتابه "عنترة أحد شعراء الجاهلية": "لا نملك مصادر موثوقًا منها لتدوين تاريخ تلك الغارات البدوية سوى القصائد والمقطوعات المحفوظة عن شعراء الجاهلية.» وقال المؤلف نفسه في صفحة: «يمكن تعريف الشعر الجاهلي بأنه وصف مزيَّن بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها، فقد صوَّر العرب أنفسهم في الشعر صورة منطبقة على الحقيقة بدون تزويق ولا تشويه."

وقال "نولدكه" المستشرق الهولندي في كتابه "عن الشعر العربي القديم الجاهلي" إنَّ عادات عرب الجاهلية وأحوالهم معلومة لنا بدقة نقلًا عن أشعارهم، فلدينا نصيب وافر جدًّا من أخبار مكة وشئونها وقال: "إنَّ في الشعر الجاهلي ما يفتن القارئ من أوصاف الحياة والعادات في البادية، حتى أنَّ الشعراء لم يفرطوا في ذكر حمار الوحش وأنواع شتى من الظباء والغزلان والآرام والوعول."

وقال أيضًا: «وفي أحوال كثيرة يحتفظ الشاعر بوحدة الفكرة في قصيدته بأن يجعل كلًّا من أقسامها خاصًّا بوصف مناظر وحوادث من حياة الشاعر نفسه، أو الحياة العامة التي يحياها البدو في الصحراء». المنقول عن "نولدكه". وتكلم "رينان" الشهير في كتابه "تاريخ اللغات السامية ومعارضتها" فقال: «إنَّ الشعر العربي الجاهلي لم يفقد قيمته التاريخية والأدبية (من حيث هو تصوير صادق للحياة الجاهلية)، وقد شبَّه "طرفة بن العبد" خدَّ ناقته بقرطاس الشامي في البيت الأول بعد الثلاثين من معلقته:

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر كسبت اليماني قده لم يحرد

مما يدل على أنَّ الورق كان صنفًا غريبًا نادرًا، وأنه كان يستجلب من سورية في عهد قريب لنظم هذه المعلقة. »

ثالثا: المستشرقون وقضية انتحال الشعر الجاهلي

قد تحدّثنا فيما سبق عن قضية الانتحال في الشعر الجاهلي عند النقاد القدامى، والآن نريد أن نشير الى آراء المستشرقين حول هذه القضية، لأن هذه القضية قد أثيرت في العصر الحديث وتناولها المستشرقون في كتبهم ومقالاتهم المتعددة.  
 أول من تناول قضية الانتحال من المستشرقين هو المستشرق "نولدكه" سنة 1864م، وبعد ثماني سنين تطرق للموضوع المستشرق الوارد في مقدمة دواوين الشعراء الستة الجاهليين، منتهياً الى ان عدداً قليلاً من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته، مع ملاحظة أن شكاً لايزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب الفاظها وأبياتها. وتابع كثير من المستشرقين الوارد في موقفه الحذر من قبول كل ما يروى للجاهليين، ومنهم "موير" و"باسيه" و"بروكلمان" وغيرهم.  
 وكان "مرجليوث" أكبر من أثار هذه القضية في كتاباته، حيث ذهب الى رفض الشعر الجاهلي جملة في مقالة بعنوان (أصول الشعر العربي) نشرها في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد يوليو سنة 1925م، وقد بنى رأيه هذا على ضربين من الأدلة: أدلة خارجية وأدلة داخلية، سنشير فيما يلي الى نظرته هذه وأهم ادلته الخارجية والداخلية بصورة موجزة:  
**الأدلة الخارجية:**  
1ـ استهل "مرجليوث" مقالته بالحديث عن وجود الشعر في الجاهلية وموقف القرآن الكريم من الشعر، متحدثاً عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك.  
2ـ ثم ينتقل الى الحديث عن حفظ هذا الشعر الجاهلي وينفي أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته ليقول إنه لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة، ثم يعود فينفي كتابته في الجاهلية ليؤكد انه نظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم.  
3ـ يتطرق بعد ذلك الى الحديث عن الرواة من علماء القرنين الثاني والثالث الهجريين، فيذكر "حمّاداً"، و"جنادا"ً، و"خلفاً الأحمر"، و"أبا عمرو بن العلاء"، و"الأصمعي" و"ابا عمرو الشيباني" و"أبا إسحاق" و"المبرد"، ثم اضاف الى ذلك آراء هؤلاء الرواة العلماء بعضهم في بعض فقال: ان هؤلاء العلماء لم يكن يوثق بعضهم بعضاً، وقال ذلك ليزعم ان الوضع في هذا الشعر كان مستمراً.  
**الأدلة الداخلية :**  
1ـ يقول "مرجليوث": إن ما في هذا الشعر الجاهلي لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي، ولا الآلهة المتعددة، إنما يعرفون التوحيد والقصص القرآني، وما فيه من كلمات دينية اسلامية مثل الحياة الدنيا، ويوم القيامة، والحساب، وبعض صفات اللّه‏.  
2ـ وينتقل من ذلك الى اللغة، فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة، وهي نفس لغة القرآن الكريم التي أشاعها في العرب، ويقول: ولو أن هذا الشعر كان صحيحاً لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية، كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب.  
3ـ ثم ينتقل الى موضوعات القصائد، ولعله يريد ان يستنتج منه ان اتفاق القصائد الجاهلية في التطرق لموضوعات واحدة بعينها تتكرر في كل قصيدة، أمر يدل على أنها نظمت بعد نزول القرآن لا قبله.  
 ثم تصدى نفر من المستشرقين للحديث عن (صحة العشر الجاهلي) وردّوا فيما كتبوا، ما ذهب اليه "مرجليوث" وفنّدوا أدلته وافتراضاته ومنهم "شارلس جيمس ليال" في مقدمة الجزء الثاني من المفضليات، و"جور جيوليفي دلا" في مقالته "بلاد العرب قبل الإسلام".

المراجع:

ينظر:

1 -محمد لطفي جمعة: الشهاب الراصد.

2 -طه حسين: في الشعر الجاهلي.

3 -محمد فتحي عبد العال: قضية الشعر الجاهلي

4-ناصرالدين الاسد: مصادر الشعر الجاهلي.